

وجوه الإعجاز

بقلم الأستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

تكلمنا في العدد الماضي عن إعجاز القرآن بمرض عام ، ووعدنا أن نتبعه بالكلام على
« وجوه الإعجاز » ؛ وهانحن أولاء ، نفي بالوعد :

ليس بين العلماء خلاف في أن العرب عجزوا أمام تحدى القرآن إياهم فلم يأتوا بشيء مثله ،
ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز إلى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة ، ولا إلى قوة بلاغية
في القرآن أوقفتهم أمامها خاسئين ، وإنما نسبته إلى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن
يحاكوه صرفاً ، وهذا هو القول بالصرقة المنسوب إلى النظام ، زعماً منه أن ذلك أدل على تأييد
الله لرسوله ، لأن عجز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد من عجز العاجز لقصور فيه ، ولكن
ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ، ولولا أنه النظام أحد شيوخ
الكلاميين وأستاذ الجاحظ - وإن كان الجاحظ لم يرض منه هذا القول على ما ذكرناه - ما تعرض
لنقده أحد من الباحثين ؛ وهذه أدلة الفساد إن كان في حاجة إلى تدليل :

أولاً : - لو كان عجز العرب بالصرقة ولم يكن القرآن نفسه معجزاً خلا من كل فضيلة له
على غيره من الكلام ، ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التي
تحول بينهم وبين أن يقولوا مثله ، ولا تزال في صدورهم أفئدة لم تزلزل ، وفي أفواههم ألسنة
لم تعقد ، فما بال ذلك لم يصدر عنهم وما بالهم كان الظاهر عليهم - وهم نقدة الكلام ، وصيارفة
القول - العجب العاجب . فصاحة القرآن والدهشة الآخذة من بلاغته ، حتى كان الكثير منهم
على عذاه وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه ، وقد أثر في ذلك الكثير أوله أسلم الجهم الغفير .
روى أن أعرابياً سمع قوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً
لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وروى أن آخر سمع قارئاً يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن
المشركين » فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدة قبل إسلامه دخل
على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه فرق قلبه لما سمع وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم
من ساعته . وإنا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبي عليه الصلاة والسلام
« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم
لعلكم تذكرون » فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو ، فأناه أبو جهل

فقال له : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتي محمداً بقرض لما يقول، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أغلاة مفرق أسفله، وإنه ليعلم ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ماتحته، قال: لا ترضى عنك، قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: « هذا سحر يآثره عن غيره، » ذلك ما قال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون »؛ فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود، نعم ذلك ما قال بعد تفكير وتقدير وإصرار على ما به من جحد وعناد، وهو يدل على ما لم يقدر على إخفائه، فقد صرح في حديثه أن ما يقولون لا يشبه شيئاً من هذا القرآن، ووصفه بما وصفه بما يدل على هذه المغامرة، وأخيراً كان حكمه عليه قوله فيه « هذا سحر يآثره عن غيره، » فجاء ذلك الحكم حاملاً في ثناياه أن القرآن قوة خارقة، تنظر قريش إليها نظرتها إلى السحر، وكفى بهذا من المعاندين إذعاناً وتسلياً.

وماد من أقدمنا هذا الحديث من عدو طاغ شهادة منه على الإعجاز - والفضل ما شهدت به الأعداء - فلمنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهداً آخر في الموضوع أيضاً، فقد جاء قصصه رائعاً معجزاً، قال سبحانه لنبيه وقد ساء صلى الله عليه وسلم صدق قريش الوليد أن يسلم، واستسلام الوليد لها في رمية القرآن بالسحر، يؤسبه ويصبره ويهدد هذا المقتون وبزجره : « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر » .

فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويراً شمل أطرافه في بلاغة وقوة أداء من بيان مكانة الوليد ومقدار ما شمله لذلك من غرور جعله يقول ما يتول، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله من سعيه.

وثانياً: - لو كان إعجاز القرآن بالصرقة كما يقول النظام، وليس ذلك لفضيلة فيه، لزال الصرقة بزوال زمن التحدي ولأصبح في مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه في ذاته من صفة الإعجاز. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون؛ فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى

رجال النثر بفاية ما في طوقهم من بيان، ومع هذا بقي بينهم وبين ما جاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد، فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الأول على أن معجزة الرسول العظمى باقية مابقي الزمان وأن لا معجزة له باقية سوى هذا القرآن .

ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعميد الطريق إليهما لكل طالب لها راغب فيهما ، ولكن بدلا من أن يعين ماوضع لهما من قواعد ، وفصل من فصول رجال الكلام إلى أن يشبهوا فيما يقولون شيئا من القرآن ، أراهم الشقة بعيدة عنهم ، والمحاولة مستحيلة عليهم، لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التي لا تحصى، وفضائله التي لا تستقصى ، حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجاني إلى تسمية ما ألفه في هذا الباب « دلائل الإعجاز » ، وليس بعد إقرار مثله إقرار ، ولا ينبتك مثل خبير، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

ومن العلماء من قال إن التحدى جاء في كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين، ومن ثم وقع العجز لأنه محال أن يتهاى لبشر في صفة من هذه الصفات ما لله جل شأنه فيها، وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه ، فإن الكلام القديم قبل صوغه في هذه الصورة التي بلغ بها، لا مثل له ولا وقوف للعرب على كنهه ، فكيف يتحدثون بشيء غير معروف لهم ، والتكليف بغير المعروف لا تسميغه العقول ولا تقبله الأفهام ؟ فإن قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها ، قلنا إذن الإعجاز في المعاني لا اللفاظ، وإذن يكون سائر الكتب المتزلة معجزة كالنوراة والإنجيل، لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم، وما قال بذلك إنسان ، ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئا من هذا كما ذكر وردد القرآن .

على أن في القرآن نفسه ما يفهم أن التحدى كان يطلب إلى العرب الإتيان بمثل هذه الصورة اللفظية في نظمها وتأليفها دون النظر لمعانيها، فإنهم حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم - كما حدث الجاحظ آنما - أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، ورموه باقتراء الكتاب على الله ، قال لهم : فها توها مقتريات كما هي الآية « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من أنستطعم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن الله لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » ، ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا ، وفي ذلك دلالة كافية على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذي أنتج البيان الرائع ، وأتى بالسحر الحلال .

وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التفريق بالغيوب والكشف عما

في الضمائر مصيباً في ذلك كله الاصابة جميعها، وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين، مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار، ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلاً على الإعجاز، لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تنبأ صدقاً، ولا استحالة وقوفها على مثل ما جاء به قصص القرآن لخروج النبوة عن طرق البشر، ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك له سبيل التحصيد، فإننا لا نرتضى ذلك أيضاً دليلاً على الإعجاز الذي يجب أن يكون للقرآن، وإلا كان ماورد في الكتب المنزلة قبله ميراً عن غيب أو قاصاً لقصص، وما أكثر هذا الأخير فيها معجزاً كذلك !

وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثلما ذكر القرآن الكريم، وأنه لم يقل به إنسان، كما سبق أيضاً أن رسول الله حين قالوا له: أنت تعرف من أحوال الأمم ما لا نعرف، ورموه بالافتراء، قال: فها توها مفتريات، وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا، بل كان ماورد في القرآن نفسه بعيداً عن التنبؤ والقصص - وهو معظمه - فأفاد صفة الإعجاز، وفي مقدور العرب أن يحاكموه، مع أن الإعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذي تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة، كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد يعتقد الإجماع.

أما إذا أرادوا أن محمداً وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جعبة هذه الأخبار - وخاصة إذا لم يعرف عنه في الحال الأولى سحر ولا كهانة، ولا في الثانية اتصال بمن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار، وأنه وهذا شأنه لا بد أن يكون صادقاً في نسبة هذين إلى الله، لأنه وحده المستأثر بعلم الغيوب ودون غيره الملم بتواريخ الأولين، وبذلك تثبت نبوته، وينسحب الصدق إلى سائر النواحي من القرآن - تقول أما إذا أرادوا هذا فإننا لا قبله دليلاً على الإعجاز أيضاً بالمعنى المراد، لأنه ينتهي بنا إلى ما انتهى إليه الأسر الأول، إذ كل ما بينهما من فارق أنا اتخذنا في الأول عجز العرب، وفي الثاني عجز محمد دليلاً على أن بعض الكتاب يحتم عن طريق معناه أنه من عند الله، وبذلك تثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب، ولكننا لازلنا على هذا وعلى ذلك بعيسدين عن إثبات الإعجاز للقرآن إثباتاً ينال جميعه بالذات لا بعضه بالنظر إلى معناه، ثم يأتي على سائرهما تقدم بطريق الاستنباط.

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التي لم نرتضها دليلاً على الإعجاز، ومن قولنا فيها يظهر أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلاً، أما الثالث فمع عدم نهوضه وحده دليلاً على إعجاز الآيات لذات الآيات صالح أن يساق حجة للإعجاز، ولكن على النحو الذي بيناه، ولهذا لا يفوتنا أن نذكر شيئاً عن القصص والنبوءات، أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب

فيه ، فلندع التمثيل له الآن إلى حيث يأتي ذكر الأغراض ، ولنكشف هنا ببعض ماورد فيه من الآيات المفهمة استحالة على رسول الله ، ولم يكن من عند الله ، والموضحة مدخله إلى الإعجاز: قال تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون» ، وقال: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين» وقال أيضاً: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» ، وقال والقول في هذا الباب كثير: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» .

وأما النبوءات فعلى قلتها في القرآن أدل من القصص على الإعجاز بالنهج الذي نهجناه ، وهذا شطر منها حيث لا عودة إليها فيما سيأتى من كلام ، قال الله تعالى : «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين» ، وقد غلبوا في هذا البضع ، وقال : «لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون» ، فدخلوا كما قال ، وقال في قصة بدر : «سيهزم الجمع ويولون الدبر» كما قال فيها «إن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» فصدق في ذلك كما صدق في إخباره عما في نفوسهم من ودم أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، ومن تحقيق ما أراده هو من أنها لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تنبؤه عما في الضمائر .

ومنه أيضاً قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه في إحدى الفزوات «ولن تخرجوا معي أيداً ولن تقاتلوا معي عدواً» ، فإنهم لم يخرجوا معه بعد ، وكذا قوله لليهود : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» ، فماتناه أحد منهم تحقيقاً لقوله بعد «ولن يتمنوه أبدأ بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون» .

لهذا ذكر الباتلاني في كتاب «إعجاز القرآن» عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه من الإعجاز : جعل أولها الإخبار عن النيوب ، وثانيهما الإخبار عن قصص الأولين ، ثالثهما ما أن شرع فيه من نصيب إياه الوجه الحق للإعجاز ، فقد قال : «والوجه الثالث أنه وبمع النظم ، عجيب أنما أليف ، وتمناه في البلاغة إلى المدى الذي يعلم عجز الخلق عنه» ، وهو ما نريد ، ولكن على خلافه في التفاصيل : ما